بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، وبعد:

فمنذ زمن وبعد مطالعة كتاب القاضي عبد الجبار الهمذاني (تثبيت دلائل النبوة)[1]، أخذت على نفسي عهدا أن أخدم هذا الكتاب لأهميته وعمق مؤلفه وغرابة أسلوبه وبراعة منهجه فيه، وكأنني أمام رجل ما خلقه الله إلا للكتابة في هذا الشأن على طريقة تخاطب الفكر وتستدعي النظر، وهو أحوج ما نحتاج إليه في عصر أشيع عن الدين ضعف نقاشه المنطقي لخصومه، وفرض خرافاته وتصديق أساطيره – حاشاه-، فجاء هذا الكتاب مكذبا دعواهم، داحضا شبههم، مجتثا افتراءاتهم، رافعا راية الحق على أمتن أرض وهي أرض اليقين.

فأعان الله –تعالى- على تلخيص الكتاب، وبيان منهج المؤلف، وعرض محتواه في صورة لم تُخِل بالمقصود ولم تنقص من مادته، والإبقاء على ألفاظ كاتبه ما أمكن، وليس لي في هذا سوى الجمع والترتيب والتنقيح مع حذف الاستطرادات الكثيرة والتي لا تفيد غير المختص ليعم النفع به ويكون سهل التناول لعامة القراء وخاصتهم.

وأسأل الله –تعالى- أن يجعل إسهامنا هذا موضع رضى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عنا، وأن يجزي القاضي خير الجزاء، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمن كان له فضل علينا، والقارئين والناظرين والناشرين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

[1] - دار العربية – بيروت – لبنان - ت:عبد الكريم عثمان.

تمهيد

إن صحبة القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه أورثتني أمرا يوجب البدء به وهو أن الشبهة مهما عظُمت في نفسك فهي في ذاتها أمام الحقائق العلمية أحقر ما تكون، وإنما يحتاج المرؤ فقط إلى التأني وعدم الدهشة والتمعن في قراءتها أولا ثم عرضها على ثوابت المنطق وضروريات العقل!

وهذا ما جرى عليه القاضي في نزاهة تامة وبحث عادل وكأنه يقول: إن إثبات نبوة محمد بن عبد الله –صلى الله عليه وسلم- أيسر عندي من شربة ماء!

ومن الأهمية أن نطمئن هؤلاء الذين تسربت إلى قلوبهم الشبهات فأفسدت عليهم لذة إيمانهم ونقول لهم ما قاله القاضي: "لتعلم أن الإسلام نور لا يطفأ، وأن مطاعن الخصوم فيه لا تزيده إلا قوة كالذهب الذي لا يتلف وكلما سبكته وعرضته على النار زاد جودة وصفاء".[2]

فكان يكرر قائلا في عزة وشموخ عن ردوده: "فأما من نظر واعتبر وكان قصده التعرف والتبين فإن ذلك يفضي به إلى العلم".[3]

وقال كذلك: "وإنما يُعرف بالتأمل والتدبر وإن كان يسيرا، فمن لم يتأمل ولم يتدبر ولم يستنبط يذهب ذلك عليه".[4]

فالأمر سهل ما دام القائم به متسلحا بالعلم والأناة والتدبر، فإن مثل الشبهة في القلب كالغمامة في السماء تبددها أنوار العلم كما تقشعها أنوار الشمس.

---

[2] - ٤٠٧.
[3] - ٣٤.
[4] - ٣٠.

منهجه في الكتاب

أوضح القاضي مرجعية آراءه وأنها من الأمور المتفق عليها بين المخالف والموافق فقال: "وإنما قلنا ذلك بالتأمل لأحوالهم وبالاستنباط الذي قد ذكرنا لك، فلن يقدح ذلك في علومنا، ولن يوحشنا خلاف مَن خالفنا كائنا مَن كان من خلق الله".[٥]

وكأني بك أيها القارئ –الكريم- تسمع حدَّة صوت القاضي من حروفه، فهو يحاول قدر الإمكان فرض قبول الفكرة وإلزام الخصم بها لا لكونها من نتائج عمله وإنما على جهة قابليتها للنقد والتفتيش في صحتها.

لذلك نعى على مبتدعة ضلوا وأضلوا لقلة علمهم وضياع تدبرهم وسوء سريرتهم: "ولو كان لهم تحصيل وتدبير وقصدوا الإنصاف وطلبوا العلم من موارده لعلموا".[٦]

وقال ناصحا: "فتأمل وفكر، فبالفكر تكون البصائر".[٧]

وقبل الحديث عن أهم المرتكزات التي بنى عليها القاضي مصنفه لابد من الانتباه إلى أن الإفادة المثمرة ليست في وصولك إلى ما كُتِب ولكن في معرفتك كيف كُتِب؟!

والطريق لن يستقيم إلى تحصيل ذلك إلا بصبر ومصابرة، وقراءة واستقراء، وفهم وتفهم فإن علوم هؤلاء الأعلام عزيزة مصانة عن أفهام عابري السبيل ومتطفلي موائد المطالعة!

---

٥ - ٣٠.
٦ - ٤٢.
٧ - ٥١٨.

وفي غير ما موضع من كتابه يؤكد على أن القضايا المتنازَع فيها لابد أن تخضع أمام البحث العلمي الجاد وأن الوسيلة الأمينة إلى غاية مرضية هي تلك السائرة في ضوء الحقيقة والموافقة للوقائع والتواريخ والأحداث أيا كانت نتائجها فقال: "ويتهيأ لكل عاقل من كافر ومؤمن أن يعرف ذلك ويجب عليه أن يعرف، وسبيله سهلة قريبة، فمن نظر واستدل عرف، ومن لم يستدل لم يعرف".[٨]

وإن كان موضوع الكتاب في أصله كما هو ظاهر من عنوانه الكلام على دلائل تثبيت نبوته –صلى الله عليه وسلم- واستطراداته الموسعة فيما يتعلق بها، فقد تطرق في شطر كبير إلى تحقيق مذاهب الخصوم كالنصارى مثلا في إثبات ما جاء في القرآن الكريم من نسبة الأقوال إليهم من التثليث وغيره وأنها موجودة متداولة بينهم، كما قام بنقض شبه الرافضة وأنهم الباب الأعظم للإلحاد وهدم الإسلام والانتقاص من رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في صورة السب والطعن والسلب لأصحابه المرضيين وفعلوا فيه ما لا يستطيعه أعداؤه كاليهود والنصارى، جاز أن يُسمى الكتاب (تثبيت دلائل النبوة والرد على النصارى والرافضة).

ورغم ما حشده من دلائل فإنه اعتذر إلى القارئ عن اقتضاب القول وعدم الإطناب خشية الملال فقال: "ولو أفردت لكل آية بابا وشرحت ما فيها لكان أولى وإن طال، وأنت متى شئت قدرت على ذلك".[٩]

ومنهجيته النقدية واحدة سواء كانت في الرد على غير مسلمين أو مدعي الإسلام وهي في مجملها طريقة استقرائية وتتبعية تاريخية تحليلية مع وضع الاحتمالات والفرضيات واستخراج المحصَّل منها.

---

[٨] - ٦٥.
[٩] - ٤٠٥.

ويرى القاضي أن مثل هذا المنهج القويم هو ما دعا غير المسلمين إلى قبول الإسلام والإيمان برسول الله –صلى الله عليه وسلم- إذ أن العقل يدعوا بعد التدبر إلى ذلك، فقال: "فنظر القوم إلى أصول صحيحة يشهد العقل بها، وفروع زكية تدعوا إلى التمسك بأصولها، ووجدوا أن الصحابة يعلمون بما يقولون، فأسلموا وتبادروا إلى الإسلام طوعا من تلقاء أنفسهم، وجاهدوا في سبيل الله كما قد عرف الناس".[١٠]

---

[١٠] - ٣٣٣.

ابتدأ القاضي الكلام عن طبيعة القوم الذين بُعث إليهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وكيف كانت صعوبة دعوتهم خلافا للأمم قبلهم ممن أُرسِل فيهم أنبياء ورسل سابقون فقال: "وجاء محمد –صلى الله عليه وسلم- قوما لا يعرفون الربوبية، ويعبدون الأصنام، وينكرون البعث والمعاد أشد الإنكار، لا يعرفون نبوة ولا طهارة ولا صياما ولا زكاة، أشد الناس نخوة وجبرية وأنفة، قساة جفاة، معاشهم من شن الغارات، يسفكون دماءهم ويئدون ذريتهم فرارا من العار".[١١]

أما الأنبياء قبله مع أممهم فقدموا على أمر ممهد مألوف معروف، وعلى قوم قد أَلِفُوا وعرفوا.

فأسباب نجاح دعوته –صلى الله عليه وسلم- مقطوعة بالحسابات المادية الملموسة والتي يشهد التاريخ أن مثل قيامها مستحيل.

أولا: وكما قال: "لأنه دعاهم إلى أمور وشرائط ظاهر التدبير وموجب الرأي واقتضاء الحزم ألا يجيبوه ولا يتبعوه إلا أن يكون من قِبَل الله، وواثقا بوعد الله".[١٢]

ثانيا: بالنظر مباشرة إلى دراسة حال رجل فريد وحيد في مثوبة الموت، وخندق الخوف، وذل اليتم، ووحشة الوحدة اجتمع على استئصاله أمم العالم كله من يهود ونصارى وفرس ومجوس فصاروا يدا واحدة في عداوته، وطلب نفسه، والحرص على قتله، مع ما هم عليه من حقد وأنفة وغَيرة، لا يعتصم منهم بمخلوق، ولا يستجير بملك من الملوك، ولا يلوذ بأحد من البشر، فصرفهم الله عنه وهذه حاله!

---

[١١] - ٩.
[١٢] - ١٠.

فلما سلم من الحرص على قتله، وآلت الأمور إلى ما قال، علمتَ وتيقنتَ أنه من قِبَل الله.[١٣]

ثالثا: بالنظر في ذكاء قومه وأنهم أعقل الأمم وقتذاك فما آمن به من آمن إلا عن عقيدة راسخة وقلب ثابت، "فإن العقلاء والحكماء يقولون: الأمم العاقلة هم: العرب والفرس والهند والروم، ثم قالوا: أعقل الأربع العرب والفرس، ثم اختلفوا أيهما أعقل وأحكم وأفطن، الفرس أم العرب؟ وخاضوا في ذلك، وذكروا ما لكل أمة من وصية وحكمة، وتدبير وسياسة، وهذا مالا يدفعه العاقل المتفكر المتدبر".[١٤]

١٣ - ٧.
١٤ - ١٣.

● ركيزة المؤلف الأساسية في كتابه:

بنى المؤلف كتابه على ركيزة راسخة ومنها انطلق وهي:

ذِكْرُ ما يفيد سامعَه اليقين من الأخبار وهو المسمى عند الأصوليين والمحدثين بالمتواتر، والاستدلال به أمر حاسم في مواطن الخلاف والإيمان به لا يحتاج إلى نظر وبحث، ويشترك في الإقرار له كل عاقل.

قال: "فنبدأ من ذلك بما في القرآن، وبما يجري مجراه مما يعلمه مَن سمع أخباره".[١٥]

أما قضية التسليم لأخبار القرآن فهي متوقفة على صدقه أولا وإن توافر فيه التواتر ومن هنا كان الفيصل الحقيقي اختبار أخبار القرآن من حيث موافقتها للواقع من عدمه، فإن الكاذب تفضحه الشواهد.

وبيَّن القاضي أوجه حجية القرآن الكريم فقال: "واعلم أن القرآن حجة من ثلاثة أوجه: فكل سورة منه حجة من طريق الفصاحة والبلاغة، وهو حجة لما فيه من الإخبار بالغيوب، وهو حجة لما فيه من التنبيه على دلائل العقول، فإن ذلك جاء على طريقة انتقضت به العادة".[١٦]

وهو –رحمه الله- يوضح أن الاستدلال بأحد هذه الأوجه كاف عن معرفة الأخرى، قال: "فإن من استدل ببلاغة القرآن وفصاحته على نبوة النبي –صلى الله عليه وسلم- عرف صدقه وإن لم يعلم ما في القرآن من الإخبار بالغيوب، ومن لم يستدل بالفصاحة واستدل بما فيه من التنبيه على ما في العقول يحصل عالما بنبوته وإن لم يستدل بالفصاحة ولا بالإخبار عن الغيوب".[١٧]

---

١٥ - ٥.
١٦ - ٨٦.
١٧ - ٥٠٩.

وفي حسبانه –رحمه الله- استقصاء دلائل نبوته –صلى الله عليه وسلم- مما ليس في القرآن الكريم كما قال: "والنية ذكْر أعلامه التي ليست في القرآن بعد الفراغ مما في القرآن، فإن وهب الله ذلك وإلا ففيما معك فوز عظيم فاحتفظ به وحافظ عليه واطلب ما بعده فإنه أكبر الجهاد وأجلُّ العبادة".[١٨]

إلا أن الموت داهمه والعوائق شغلته فلم يفي بما عزم على فعله ولم يأت على ما مهَّد له كله، وإنما كانت كتاباته غاية مستقلة في ملف نقض الشبهات وتقوية جانب الإيمان في قلوب المسلمين، والحرص منه على النفع العام وفتح عيون الباحثين على منهج جديد يتعاملون من خلاله مع معجزة الرسول –صلى الله عليه وسلم- الكبرى، والتي لم تكن رهينة زمنه بل استمرت في إقامة الحجة على قومه في حياته وبعد مماته ومَن بلغتهم وهي معجزة القرآن الكريم.

وهو إذ جعل القرآن الكريم قبلته الأولى يرشد قارئه إلى تدبر معانيه والوقوف على أسراره فيقول على سبيل المثال عند مراعاة الآيات التي جاءت بصيغة المستقبل (فسيقولون، فسينغضون) وما على شاكلتها والتحقق من موافقتها للوقائع يقول: "فاعرف هذا وراعِهِ في أماكنه من القرآن إذا تلوته".[١٩]

وكانت عنايته في الكتاب توجيه القارئ أولا إلى أمر واحد من أوجه إعجازه وهو إخباره لما فيه من الغيوب فإنه لا يمتري أحد في أن أقصر طريق للوقوف على صدقه أن يوافق خبرُ القرآن ما أخبر به، وأن يختبر وعده ووعيده ومتضمنات حكاياته ومسرود آياته، ثم الحديث عن فصاحته وبلاغته وما فيه من التنبيه على دلائل العقول.

---

[١٨] - ٤٤٦.
[١٩] - ٤٥٧.

- ويأتي محتما إذن القول في شواهد صدق القرآن الكريم:

أولها: أشياء نزل القرآن بها قبل كونها.

فمن ذلك قصة أبي لهب الذي أنزل الله فيه سورة مكية تصف حاله وحال امرأته من التفاني التام في إيذاء رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فوعد الله رسولَه السلامةَ منهم، وتوعد أبا لهب وامرأتَه النارَ بعد موتهما على الكفر.

قال: "ومن عجيب الأمور أنها نزلت بمكة، وتلاها رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، وسمعها أبو لهب وجميع أعداء رسول الله –صلى الله عليه وسلم- من قريش والعرب وغيرهم –وهم أعوان أبي لهب-، فهاجهم هذا القول في عداوته، وزاد في غيظهم وحنقهم، وأذكرهم بنفسه وهو معهم وفي أيديهم وفي قبضتهم، فما ضرَّه، ولا تمَّ لهم أمر في الظفر بقتله، ولا على زلة يتبين فيها كذبه وسقوط قوله، وهذا لا يُقدِم عليه العاقل إلا وهو على غاية الثقة بما يقول، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم- لا يدفع عدوَه عقلَه،[٢٠] ومنذ نزلت هذه السورة وإلى هذه الغاية يحرص أعداء رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أن يجدوا في ذلك مطعنا فما وجدوا".[٢١]

ثانيها: ما وعده الله به من بقاء ذكره على خلاف ما ظنه أعداؤه به عقب موت أبناءه الذكور فقالوا: أبشروا فقد انبتر محمد.

فأنزل الله –عز وجل-: (إِنَّآ أَعۡطَيۡنَـٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ (٣).

---

[٢٠] - أي لا يقلل من عقليته ولا فطنته أعداؤه ولا يشكون في رجاحته.
[٢١] - ٣٦.

"فانبترت ديانات قريش والعرب كلها وبطلت عن آخرها، ولم يبق على ذلك الدين عين تطرف، وتم أمره –صلى الله عليه وسلم- وسطع نوره وعلا وقهر".[22]

ثالثها: إعلانه عدم المداهنة والمهادنة في دعوته لهم بعد عرضهم عليه أن يعبدوا إلهه عاما ويعبد إلههم عاما فتكون كلمتهم سواء ويسالموه ويسالمهم، فأنزل الله –تعالى-: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١).

"فتأمل كيف يجبههم بالإكفار والتجهيل والتضليل، وهم أشد عالم الله أنفة ونخوة وجبرية، ودفاعا عن أنفسهم، ومواثبة لعدوهم، وهو بمكة معهم وفي أيديهم وفي قبضتهم، والعزة والغلبة والكثرة لهم لا له، فهيجهم على نفسه بهذا القول، وبعثهم على مكروهه، فنجاه الله منهم".

"من أي شيء تعجب –رحمك الله-؟ أمِن إقدامه، أم من مصير الأمر إلى قوله وحكمه؟".[23]

قال: "ولو لم يكن من آياته إلا هذا لكفى وأغنى".[24]

رابعها: دعوة الخلق أجمعين إلى الإتيان بمثل ما جاء به من ربه وتحديه لهم بالعجز عن اختلاقهم قولا يشبهه أو حديثا يجاريه فلم يستطيعوا، وقد علم –صلى الله عليه وسلم- وتيقن حين تحداهم أنهم لا يأتون بذلك، ولو لم يتيقن ذلك لما تحداهم ولا قال، لأن العاقل لا يقدم على مثل هذا وهو لا يأمن أن يأتوا بمثله فيفتضح وتبطل حجته ويستظهر عليه خصمه ويظهر كذبه وينصرف عنه أصحابه وتبطل رئاسته، سيما والعرب أمم كثيرة، والفصاحة مبثوثة فيهم.[25]

---

[22] - ٣٨.
[23] - ٤١،
[24] - ٤٠.
[25] - ٤٠٠.

خامسها: ما وعد الله أصحاب رسوله –صلى الله عليه وسلم- من المهاجرين والأنصار والمكيين في حال ضعفهم أن الله سينصرهم ويمكنهم ويقويهم ويظهرهم، فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وتكون العقبى لهم، وتلا لذلك القرآن وخلَده وأسمعه عدوه ووليه، فقال –عز وجل-: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ)،[٢٦] فتمكن أصحابه وخلفاؤه، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وكانت العقبى لهم.[٢٧]

سادسها: تدليله على صدق النبي –صلى الله عليه وسلم- في رحلة الإسراء والمعراج، وكيف أن مثل هذا الادعاء إن صدر عن كاذب –حاشاه- يكون آخر مسمار في نعشه وأول صيحة تنادي على هرطقته، فهي دعوى تنفير عن تصديقه وتسليط للأعداء على أتباعه ورميهم لهم بالبلاهة وخفة العقل وضعف المنطق، ومع هذا كله ألقى المكذبون عليه الأسئلة التي يقطع عجزه عن جوابها بفضيحته أمام التابع والناكب والحاضر والغائب، بل كان سؤال صاحبه أبي بكر له أن صِف لي المسجد؟ فجاء على تصويره لا وصفه أتم تصوير، وسألته قريش عن عير لها بالشام؟ فأتى على أدق ما رأى فيها من شرود بعير لهم وقدح كان فيه ماء فنزل –عليه الصلاة والسلام- فشرب منه وهم نيام فلما استيقظوا وجدوه فارغا، وأخبرهم متى يقدمون وما صفة قافلتهم ونعت جمالهم.

---

[٢٦] - سورة الحج: ٤٠.
[٢٧] - ٤٤.

وما هذا كله إلا لحرص قريش على تبيين أمره وإيضاح شأنه وهم أهل عقل وفطنة وذكاء قال –رحمه الله-: "وانظر كيف قد سألوا عن ذلك مما يمكن العاقل أن يسأل عنه ويتكلم فيه".[٢٨]

ومن العجائب أن القرآن سجَّل هذه الواقعة متفضلا بها على رسوله، متحديا بها أعداءه في زمنه وعلى مرور الأزمنة، ولا يعقِل أحد أن يقوم شخص بنشر شيء يعيبه أو يعيب أتباعه بل ويكون قرآنا يتلى إلى قيام الساعة وهو ضَرب من الخيال أو نوع من السفه، قال –رحمه الله-: "قبل كل شيء قد علمنا أنه –صلى الله عليه وسلم- قد احتج بالإسراء وجعله قرآنا يُتلى، وقد سمع هذا جميع أعدائه من قريش واليهود والنصارى وهم معه وجيرانه وأشد الناس عليه وأحرصهم على عثرة تكون له أو عيب يكون فيه، وهنالك أصحابه ومن قد اعتقد صدقه ونبوته ولم يتبعه إلا لأنه نبي صادق وعاقل لا يحتج على عدوه ووليه بما لا يقوم برهانه، ثم لا يرضى أو يأتي في ذلك بقرآن يتلى ويضيفه إلى ربه ويستطيل بذلك على عدوه ووليه، وليس معه في ذلك إلا الدعوى الخالية من كل الحجج؟ هذا لا يفعله عاقل، وعقل رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عند عدوه فضلا عن وليه فوق العقول".[٢٩]

سابعها: ما أنزله الله في أعيان بعض المشركين من إصرارهم على الكفر وموتهم عليه، والتنبيه على أن تخصيصهم علامة على قبول غيرهم من المشركين للإسلام حال نزوله في أصحابهم.

---

٢٨ - ٥٠.
٢٩ - ٤٩.

كما أنزل الله في حق أبي جهل قوله: (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾.[٣٠]

"نزل هذا كله فيه وهو يومئذ حي سليم، فأذاقه الله حر الحديد ببدر، ومات على الكفر كما قال وكما أخبر".[٣١]

وما نزل كذلك في حق الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة من قريش (لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾،[٣٢] فمات على كفره.

ومنهم النضر بن الحارث وكان شديد الرد على الله وعلى رسوله، شديد العداوة والإرصاد، ورحل في عداوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- إلى فارس، وطلب ما يكيد به الإسلام والمسلمين، فوجد أحاديث وأقاصيص الفرس فاشتراها وجاء بها مكة وجعل يتحدث بها، يجلس مجلس الرسول بعد قيامه فيقص عليهم ويحدثهم ويقول: حديث محمد عن عاد وثمود والأمم من هذه الأقاصيص التي معي، بل هذا أحسن.

فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾،[٣٣] فأذاقه الله العذاب المهين في الدنيا يوم بدر وفي الآخرة كما أخبر الله وقال.

---

[٣٠] - سورة القيامة: ٣٥.
[٣١] - ٥٣.
[٣٢] - سورة الهمزة: ٥.
[٣٣] - سورة لقمان: ٦.

ومنهم الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو الذي اتفق مع قريش على التشهير برسول الله –صلى الله عليه وسلم- وأنه ساحر، فأنزل الله في حقه ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾،[٣٤] فلم يزده الله مالا ولا ولدا بعد هذا كما أخبر، ثم مات كافرا كما قال الله.

ثامنها: انشقاق القمر تأييدا له على صدق رسالته، "فإن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قد احتج بذلك على المسلمين والمشركين وتلا هذا القول عليهم من سورة القمر ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾،[٣٥] ولم يكن ليقدم ويحتج على العدو والولي بما لا حاجة فيه، ويشير إلى أمر ظاهر يُشار إليه ويشاهده الناس، فلو أراد أن يُكذب ويرد قوله ما زاد على هذا.

هذا لا يقع من عاقل ولا يختاره محصل كائنا من كان، فكيف يقع ممن يدعي النبوة والصدق وهو أشد حرصا بالناس كلهم على تصديقه واتباعه؟ فلو أراد أن يكذبوه ويردوا قوله ما زاد على هذا، وهذا لا يذهب على متأمل".[٣٦]

تاسعها: إخبار القرآن بما سيكون من غلبة الروم على الفرس وتحقق ذلك في حياة هؤلاء القوم ممن يصغون إلى سقطة تعينهم على تكذيب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في قوله –تعالى-: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾، ومن غريب الأشياء أن تأتي الآية مؤقتة حتى يكون التحدي بها أشد والتصديق لها أوجب والتعجيز عليها أوضح فقال –سبحانه-: ﴿فِي

---

[٣٤] - سورة المدثر/ ١٧.
[٣٥] - سورة القمر: ١.
[٣٦] - ٥٦.

بِضْعِ سِنِينَ﴾،[٣٧] والبضع فوق الثلاث ودون العشر ولم تمض حتى حقق الله ما وعد به رسوله فانتصرت الروم من بعد غلبة الفرس.

وبهذا يكون ختام شواهد صدق الكتاب المنزل على رسول الله والمؤيد به.

وللقاضي ربط غريب بين دلالة القرآن –بعد التسليم بصدقه في نفسه- على صدق رسول الله –صلى الله عليه وسلم- حيث جعل مردَّ معجزات الرسول وأجلاها إلى القرآن الكريم باعتباره ميثاقا إلهي وأثرا ربانيا باق في دعوته إلى الإيمان بنبوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم-.

ومنشأ هذا أن القرآن هو الذي دُوِّنت فيه أمور لم يستطع المشركون دفعها والتكذيب بها وإشاعة مناقضتها للواقع فتكون سببا في إخفاق دعوة الرسول –صلى الله عليه وسلم- وتحجيم انتشارها وهذا لا يعقله أحد، فلما كانت على خلاف ذلك وسلَّم المعادون للرسول –صلى الله عليه وسلم- بما جاء به القرآن ولم ينتقدوه نقدا علميا –من ناحيتي مصدره وحقائقه- ظلَّت مظاهر التحدي به قائمة إلى قيام الساعة.

[٣٧] - سورة الروم: ٤.

- **ما جاء من دلائل نبوته –صلى الله عليه وسلم- في القرآن الكريم.**

وبما أن القرآن الكريم على هذا الوصف فما جاء به مُسلَّمات لا تقبل التشكيك ولا تؤثر فيه، وهو القائد الغالب إلى اليقين بألوهية مصدره وصدق المرسَل به.

وما جاء بعد ذلك مما ذكره القاضي من أعلام نبوته –صلى الله عليه وسلم- فعلى هذا النحو وهي على النسق التالي:

- انقضاض الكواكب وامتلاء السماء بها من كل جانب على وجه انتقضت به العادة وخرج عن المعتاد، وهذه آية عظيمة، وبينة جليلة، وواضحة جسيمة.

وقد نطق القرآن بها فقال حاكيا عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾﴾.[٣٨]

- تصريحه بما في نفوس أعدائه وعدم تكذيبهم له، وأعجب الأمور أنه يتلو عليهم قول الله –عز وجل-: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾،[٣٩] أي لا يجدوا بك كذابا، ولا يجدون في قولك كذبا وإن حرصوا على ذلك واستفرغوا وسعهم، ولو قدروا أن يجدوا له عثرة أو ذلة أو أدنى شبهة لما واثبه قبل الناس إلا أصحابه، ولا قبلهم إلا خاصته وثقاته وبطانته.[٤٠]

وهؤلاء الذين اتبعوا الأعلام التي كانت معه من القرآن وغيره وقد شهدوا على أنفسهم وآبائهم بأنهم كانوا على ضلال وباطل وفضائح وما استنكفوا من الرجوع عن

---

[٣٨] - ٦٤.
[٣٩] - سورة الأنعام: ٣٣.
[٤٠] - ٦٦.

ذلك، فلو حسوا بأدنى شبهة فضلا عن كذب لبادروا ورجعوا وكان ذلك أروح لهم، وأخف عليهم، وأبين في عذرهم وقيام حجتهم، فإن مراجعة الحق أولى من التمادي في الباطل.[41]

- استجابة الله دعاء نبيه في قومه فإنهم لما كذبوه وآذوه في نفسه وأصحابه دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، وابعث عليهم سنيّ كسنيّ يوسف، فأمسك عنهم القطر حتى جفّ النبات والشجر وماتت الماشية، وهي قصة معروفة نزل بها القرآن وجرى فيها الخوض، وهو قوله –تعالى-: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾، والدخان الجدب، ثم سمي دخانا لأن الغبار يرتفع في عام الجدب فيكون كأنه دخان، ولذلك سميت سنة الجدب غبراء لارتفاع الغبار فيها، وهذا شيء قد كان ومضى، ولا يجوز أن يكون هذا مما لم يأت، لأنه –عز وجل- يقول: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم ورد على نسق ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ يعني يوم بدر، وهذا كله يدل على أن الدخان قد انقضى ومضى، وأنه بدعائه، لأن العذاب في الآخرة لا يجوز أن ينكشف ولا يخف، وقد قال في هذا: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ والعود إلى المعاصي في الآخرة لا يقع أيضا، وكان انكشاف العذاب عنهم بدعائه أيضا، فأتاهم الغيث وكثر، ثم عادوا إلى طغيانهم.[42]

---

[41] - ٦٧.
[42] - ٨١.

- ومن آياته بمكة أنه –صلى الله عليه وسلم- لما جمعهم ووعظهم ودعاهم إلى اتباعه ومفارقة ما هم عليه من ديانات آبائهم ردوا قوله، ومشى بعضهم إلى بعض وقال: ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾،[43] وتوعدوه بكثرتهم وعزهم وأموالهم، ووثقوا بذلك، وغرهم ما رأوا من ضعف رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ووحدته وتوعدهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهو في تلك الحال، فأنزل الله: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾،[44] فكان كما أخبر وكانت العقبى له.[45]
- قوله لهم بمكة ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴿٤٥﴾﴾،[46] فكان مع كثرتهم وكثرة من يساعدهم على عداوته ومحاربته، وأنه إن صارت له جماعة فجموعهم أكثر، والأموال والسلاح والكراع والعدة معهم لا معه، فكان ظاهر الرأي ومقتضى الحزم أن يكون لهم لا له، إلا أن يكون من الله –عز وجل- مالك القلوب وناقض العادات لأنبيائه، فكان كما قال، وكانت العقبى له.[47]
- قوله لهم بمكة: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾،[48] أي شرف ونبل وجلالة، فهو عز ومعجز، ثم قال: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾، أي عن شكر هذه النعمة، فكان كما أخبر وكما فسّر فإن القرآن بانت آياته، وظهرت بيناته، وقامت حجته، وكملت النعمة على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وعلى صحابته به، فشرفوا وعزوا بمكانه، وذلك من الأمور البينة الواضحة.

---

[43] - سورة ص: ٦.
[44] - سورة ص: ١١.
[45] - ٨٣.
[46] - سورة القمر: ٤٥.
[47] - ٨٤.
[48] - سورة الزخرف: ٤٤.

فإنك تجد الفقهاء والعلماء قد أجلّوا القرآن ومن قرأ القرآن ومن عرف علوم القرآن، ولهذا قال –عز وجل- لقريش في ابتداء المبعث: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾،[٤٩] يريد القرآن، وأنه عز ونبل وشرف، وستشرف به أمم ممن تمسك به ودعا إليه، وقد فاتكم ذلك لإعراضكم، فكان ذلك كما أخبر.[٥٠]

- ما رفع الله به ذكره فصانه عن المعايب وعصمه من الزلات وقد نشأ يتيم الأبوين فآواه ربه وألقى عليه نظره، ومثله لو كان ما ارعوى عن فعل المنكرات واقتراف السيئات فتكون في حقه مثلبة عند كبره، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾،[٥١] وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾،[٥٢] فإن ذكره ارتفع بالصدق والوفاء والقيام بالحجة، فما وجد له أعداؤه كذبة ولا ذلة ولا هفوة مع حرصهم على ذلك، وما بارت له حجة، ولا زلت له قدم، ولا أسكته خصم مع كثرة الخصوم له، وطلب العلل وطول المجادلة.[٥٣]
- تحديه الإنس والجن بما نزل عليه من كلام ربه في قوله –تعالى-: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾،[٥٤] وفي هذا إخبار عن غيوب كثيرة، لأنه قال لكل واحد من الإنس والجن مجتمعين ومنفردين إنك لا تأتي بمثل هذا القرآن، فما أتوا به مع حاجتهم إلى ذلك وشدة حرصهم عليه، أفمن هذا تعجب؟ أم من إقدامه على الإخبار بذلك وهو لا يعرف العرب كلها ولا يحصي قبائلها ورجالها ونسائها، والفصاحة والبلاغة مبثوثة في رجالها ونسائها

---

[٤٩] - سورة ص: ٦٨.
[٥٠] - ٨٤.
[٥١] - سورة الضحى: ٦.
[٥٢] - سورة الشرح: ٤.
[٥٣] - ٨٥.
[٥٤] - سورة الإسراء: ٨٨.

وعبيدها وإمائها وعقلائها ومجانينها، وقد علم –صلى الله عليه وسلم- أنهم في اللغة والبلاغة قبله، وهو منهم تعلم، وهو عاقل، فلولا أنه تيقن أنهم لا يأتون لذلك لما أقدم على الإخبار بذلك، سيما والذي ادعاه أمر عظيم وخطب جسيم، وهو النبوة والصدق والعصمة ونفاذ أمره في النفوس والأموال ووجوب طاعته على كل أحد إلى أن تقوم الساعة، وحجته في ذلك كله القرآن.

وهذه من الآيات التي نزلت بمكة، ولو نزلت بالمدينة أو أين نزلت لكانت الحجة بذلك قائمة لا تأثير للأماكن في ذلك ولا للأزمنة، وإنما نذكر الأماكن لأن الأعداء لما أفلسوا وافتضحوا، أخذوا في تشكيك الملوك والمترفين ومن يحب الرُّخَص ومن لم ينظر ويتأمل ويسمع من العلماء، أن هذا القول إنما قاله في آخر أمره وفي آخر عمره.[٥٥]

- إخباره عما في الكتب المنزلة وما تضمنته من خلق آدم –عليه السلام-، وما كان له مع الملائكة –صلوات الله عليهم-، ومع ولده، ومع إبليس، وما كان لنوح مع قومه، ثم إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى، وأيوب، وموسى، وهارون، وغيرهم من النبيين –صلوات الله عليهم أجمعين-، وهو ما قرأ تلك الكتب ولا عرف ما فيها ولا اختلف إلى أهلها ولا اختلفوا إليه، فتعلم أنه ما علم ذلك إلا بوحي الله إليه وإطلاعه عليه، وهي أخبار كثيرة لا يقع الصدق فيها إلا بالوحي من الله –عز وجل-.[٥٦]

---

٥٥ - ٨٦.
٥٦ - ٨٧.

قال له ربه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾،[٥٧] وانظر كيف يقول له: إن هذا ليس من علمك ولا علم قومك، والعدو والولي يسمع ذلك.[٥٨]

- إخباره عن أديان السابقين كالنصرانية وبيان مذاهبهم ورده عليهم وأنهم موافقون في الحقيقة لما يقوله –صلى الله عليه وسلم- فإنك إن سألتهم عن قولهم في المسيح قالوا: إنه روح القدس وكلمته، ولم يكن من المجادلين ولا من المتنبئين، ولا ممن يقرأ الكتب ويلقى أهلها، ولا من المتكلفين، ولا كانت مكة والحجاز إذ ذاك بلاد فيها شيء من هذا.[٥٩]
- إقدامه على أمتين عظيمتين من أهل التحصيل والعقل، قد أجمعوا على أمر وسبقوه في الزمان، وهو أشد الناس حرصا على تآلفهم وإجابتهم واستمالتهم، فأكذبهم وردهم، ولو كان متقوّلا لتهيَب ولم يقدم على ذلك خوفا من أن يكون الأمر كما قالوا وكما ادعوا فيبين كذبه ويرجع عنه مَن قد تبعه، لأن الأنبياء يجوز أن يقتلوا ويصلبوا، بل قد قتل قوم منهم.[٦٠]
- إخباره بقول –سبحانه-: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾،[٦١] فأخبر بهذا وديانات العرب قائمة وملوكهم على جزيرة العرب كلها مستولية، وهي جزيرة عظيمة فيها عدة ملوك، كل واحد منهم عظيم الشأن، ثم ديانات اليهود وملوكهم، وديانات النصارى والروم وملوكهم بالشام ومصر والمغرب والجزيرة وأرمينية،

---

[٥٧] - سورة هود: ٤٩.
[٥٨] - ٨٩.
[٥٩] - ٩٢.
[٦٠] - ١٢٣.
[٦١] - سورة الفتح: ٢٨.

إلى غير ذلك، وديانات الفرس وممالكها، وهي كانت أعظم ممالك الأرض وأوسعها ملكا وأشدها بأسا، وممالك الهند، فغلب ملوك العرب في جزيرتها، وغلب ملوك اليهود وممالك الفرس كلها، وممالك النصرانية والروم، فلم يبق ملك بحيث تناله الحوافر والأخفاق والأقدام إلا أزاله عنه وأخرجه منه، وأسنده إلى عقاب يعتصم بها، ومعاقل يأوي إليها، وقلا ومطامير وخلجان وبحار يمتنعون بها.[٦٢]

فإن أمره –صلى الله عليه وسلم- كان كريشة دفعت الجبال فسيرتها وطيرتها، أو كزجاجة وضعت على الجبال فطحشتها وسوتها بالأرض، فتأمل هذه الآية العظيمة، وكل آياته عظام.

وما قلنا إنه نبي لأن دعوته قامت ودولته اتسعت، ولكن لما قدمنا وشرحنا من وحدته وفقره وتبرئه من الأمم وإكفارهم وإسخاطهم منا قد فسرنا غير مرة، ومجيء ذلك كما قال وأخبر من أنه مع هذه الحالات سيظهره الله –عز وجل-، وقد علم ذلك من سمع أخباره ودعوته باضطرار، أنه أخبر بذلك جميعه في أول أمره قبل أن يكون شيء منه وأن الأمر كما أخبر.[٦٣]

- وعد الله لرسوله بكفايته المستهزئين في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾،[٦٤] وقد تلاها على المشركين فعلمنا أن كان هناك مستهزئين وقد كُفيهم، ومنهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب الأسدي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والحارث بن الطلاطلة.[٦٥]

---

٦٢ - ٣١٥.
٦٣ - ٣١٦.
٦٤ - سورة الحجر: ٩٥.
٦٥ - ٣٤٥.

- إغاظتهم وتأليبهم عليه بما وعده الله من العصمة لهم فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾،[٦٦] فذكرهم بعصمة الله له منعةً من قتله مع وحدته وكثرة أعدائه وحرصهم على قتله واستئصاله وإطفاء نوره، فصرفهم الله عن ذلك، وقد راموه غير مرة وحرضوا عليه.

فإن هذا القول يغيظ ويغضب ويحرضهم على مكروهه ويبعثهم على قتله ويزيدهم حرصا على استئصاله، وهذا من الآيات العظام، وهو أعظم من صرف الله كيد فرعون عن موسى، فإن المؤمنين معه كانوا ستمئة ألف وكان مقام موسى مع فرعون سنة واحدة بخلاف حال رسول الله –صلى الله عليه وسلم- الذي مكث بمكة خمسة عشرة عاما، وجاءهم وحيدا منفردا بدينه، خالف الأمم كلها من أهل زمانه، ولم يعتصم بمخلوق، لا صوَّب أحدا من الأمم ولا من الملوك الجبابرة.[٦٧]

- وعده –سبحانه- لرسوله والمؤمنين: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾،[٦٨] فورثها أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم- كما قال وكما أخبر، وفيه مع كونه دلالة علة نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم- لما في الكتب التي أنزلها الله عليهم، أن النبي الأخير من ولد إسماعيل بن هاجر بن إبراهيم، القائم من فاران –مكة-، هو أعز وأعلى وأقهر من جميع النبوات، وأن أتباعه الصالحين يرثون الأرض ويحيون الحق ويميتون الباطل ويذلون الجبابرة كما هو مذكور في الكتب ذكرا تقدم به

---

[٦٦] - سورة هود: ٥٥.
[٦٧] - ٣٤٦.
[٦٨] - سورة الأنبياء: ١٠٥.

الحجة عند العلماء، وقد ذكره من أسلم مثل عبد الله بن سلام ومن يليه طبقة طبقة، وللعلماء فيه كتب مفردة.[٦٩]

- تقريع النبي –صلى الله عليه وسلم- المشركين وأشباههم وتسفيههم وتضليلهم وأسلافهم، كما قال الله –تعالى-: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾،[٧٠] قال القاضي: "وليس أحد يبكي من الهجاء ويحزن من الضيم غير العرب وسيما قريش، فكيف بهم مع رجل يقيم على هجوهم خمسا وعشرين سنة بكتاب يتلو فيه ليلا ونهارا"، ثم ساق عددا من الآيات وعقب عليها قائلا: "وتأمل ما في هذا من الإدلال بالحق والدعاء إلى البحث والنظر، وعرض ما معه على عقول العقلاء لينظروا فيما أتاهم به، والمبطل لا يفعل هذا".[٧١]

- تهوين قوتهم وتضعيف عزمهم عندما أرادوا قتل رسول الله وقد سبقت له من ربه الوعود بحفظه –صلى الله عليه وسلم-: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾، أي: فقد عرفتم نصري له حين هاجرتم وتركتموه مع صاحبه وحيدين، فأبطلتُ كيد المشركين مع كثرتهم ووحدته، وصدقتُ وعدي بمنعي عنه وعصمتي له، وأكذبت أقاويلهم، وهو معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾،[٧٢] فتأمل هذا ففيه آيات بينات باهرات، وهذا الخطاب والعذل والاستزادة إنما هي للمؤمنين.[٧٣]

---

[٦٩] - ٣٥٢.
[٧٠] - سورة الفرقان: ٤٤.
[٧١] - ٣٦١.
[٧٢] - سورة التوبة: ٤٠.
[٧٣] - ٣٧٠.

- صدعه على رؤوسهم في مكة أنهم مع إخراجه منها مهاجرا عائد إليها غالبا منتصرا كما وعده ربه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾،[٧٤] ومعاد الرجل بلده، وسمي معادا لأنه ينصرف في البلاد ويضرب في الأرض ثم يعود إليه، وكذلك مثاب الرجل منزله لأنه يثوب إليه.[٧٥]

- اجتماع يهود ونصارى المدينة بعد قدومه على قتله وبث الفتنة بين الأوس والخزرج بغية التفرقة وحثا على المقاتلة فكفاه الله شرهم بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾.[٧٦][٧٧]

- ما وصف الله من حال أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يوم بدر ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)﴾،[٧٨] ولا يقول هذا وهو يعلم أنهم يعلمون أنه كاذب، وأن ذلك لم يكن، وهذا القول يسمعه العدو والولي، وهو يمتن به على الصحابة وأتباعه، ويحتج به على العدو والولي، ويصول بذلك ويدل ويستطيل، هذا لا يقع من عاقل ولا يتوهمه عاقل تدبر وفكر، فكيف بمن يدعي النبوة والصدق، ويريد من كل أحد سمع قوله أن يتبعه ويعتقد ذلك منه ويطيعه، وهؤلاء الذين اتبعوه وأطاعوه وبذلوا أموالهم ودمائهم، إنما فعلوا ذلك لما اعتقدوه من نبوته، وعرفوه من صدقه، وتحققوه من قوله، ففي كل واحد من هذه الآيات ما فيه أتم الحجة بانفراده، فكيف بترادفه واتصال بعضه ببعض.[٧٩]

---

[٧٤] - سورة القصص: ٨٥.
[٧٥] - ٣٧١.
[٧٦] - سورة البقرة: ١٣٧.
[٧٧] - ٤٠١.
[٧٨] - سورة الأنفال: ١١.
[٧٩] - ٤٠٥.

- دعوة اليهود بالمدينة إن كانوا على يقين من دينهم أن يتمنوا الموت وإخبار الله عنهم بقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، [٨٠] فامتنعوا مع بذلهم الأموال والأولاد والأنفس في محاربته أن يقولوا: ليتنا متنا.

وهذه الآيات العظام والأعلام الكبار الهائلة الواضحة المكشوفة الباهرة القاهرة التي ما فكر فيها عاقل إلا ملأت قلبه علما بنبوته –صلى الله عليه وسلم- وصدقه، وبهرت عقله، فإنك ما تدري أمن إقدامه –صلى الله عليه وسلم- على الإخبار عنهم بأنهم لا يتمنون ذلك مع خفته وسهولته ومع علمه بشدة حرصهم على تكذيبه وفضيحته تعجب، أم من إحجامهم عن ذلك مع شدة الحاجة إليه.

وهو أعجب من قوله للعرب أنكم لا تأتون بمثل هذا القرآن، وهذا مقام لا يقومه مثله مع عقله وعظم دعاويه إلا مع اليقين، لتعلم ثقته بربه –جل وعز- وسكونه إلى ما يوحى إليه. [٨١]

- حفظه –صلى الله عليه وسلم- من كيد اليهود به إذ أرسل اليهود من يلقي عليه صخرة تقتله وهو جالس عندهم مع أبي بكر وعمر فقال لهما: قوما فإن هؤلاء قد أرسلوا من يلقي علينا ما يقتلنا، فخجل اليهود لذلك، وقال الله –تعالى- ممتنا عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾، [٨٢] وهي قصة معروفة، فلهذا جاز

---

[٨٠] - سورة البقرة: ٩٦.
[٨١] - ٤١٢.
[٨٢] - سورة المائدة: ١١.

الامتنان بها، ولا يجوز أن يمتن ويقول مثل هذا إلا لما هو مشهور معروف عندهم سمعه الولي والعدو.[83]

- نشر دسائس المنافقين وإظهار خباياهم في ممالأتهم اليهود والتودد إليهم، قال الله -تعالى-: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾،[84] والفتح هو نصر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وغلبته عليهم، فوعده الله ثم أنجز له ووفى له، وفي هذا آيات عظيمة وإخبار بغيوب كثيرة أخبر بها قبل أن تكون على وجه يغيظ ويغضب ويبعث العدو على استفراغ وسعه وبذل مجهوده في تكذيبه وفي إعمال حيله في أن لا يتم ما قال وما أخبر، خلافا لتدبير عقلاء البشر، فإنهم لا يظهرون لعدوهم وجوه مكايدهم لئلا يسبقوهم إليها، ولئلا يتحرروا منها، لتعلم أن هذا تدبير الله الغالب لكل شيء، الذي لا يغلبه شيء، وأن هذا القرآن كلامه وقوله لا كلام أحد من البشر.[85]

- إعلامه بردة بعض من آمن به في حياته بعد موته في قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾،[86] فانظر كيف قال -عز وجل- لهم بالمواجهة: (مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ)، ولم يقل: من يرتد عن دينه، فكانت عدة تحتمل التسويف بل قال: (مِنْكُمْ)، فلما قبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ارتدت القبائل الكبيرة من العرب

[83] - ٤١٥.
[84] - سورة المائدة: ٥٢.
[85] - ٤١٦.
[86] - سورة المائدة: ٥٤.

عامة وخاصة على وجوه من الردة، فشمر أبو بكر الصديق لحربهم، وأرسل المهاجرين والأنصار على قتالهم، وقاموا على ساق، فقهروهم وأذلوهم وغلبوهم وظهرت كلمة الإسلام فكان العز للمسلمين.[87]

- أجوبته على سؤال نصارى نجران له من أبو عيسى –عليه السلام-، فسكت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وكان لا يعجل حتى يأمره الله، فأنزل عليه: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾،[88] فانظر إلى هذا الاحتجاج في أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، احتجاج غير متكلف ولا متعمل ولا مخالط للمتكلمين ولا هو في بلد الجدل صنعتهم، فأشار لك بهذه الإشارة التي هي من جوامع العلم ومفاتيح الحكمة، كما قال –صلى الله عليه وسلم-: "أوتيت جوامع الكلم واختصر لي اختصارا"، فإن خلق آدم من أكبر الحجج على النصارى، وخلقه أبدع، لأنه خلق من غير ذكر وأنثى وأكمل الله له قوته وأداته وعقله وتميزه ضربة واحدة، وتولى الله –عز وجل- مناجاته وتأدبه وتعليمه بنفسه دون كل أحد من خلقه.[89]

- إخباره عن الكافرين بإنفاقهم الأموال في عداوته وعاقبة أمرهم فقال –سبحانه-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾،[90] فخبر بإنفاقهم قبل إنفاقهم،

---

[87] - ٤١٧.
[88] - سورة آل عمران: ٥٩.
[89] - ٤٢٧.
[90] - سورة الأنفال: ٣٦.

وبقتالهم قبل أن يقاتلوا، وبهزيمتهم قبل أن يهزموا، ثم كان ذلك كما قال وكما أخبر وكما فصل.[٩١]

- إخباره عن اليهود بقوله –سبحانه-: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾،[٩٢] فخبر أن أقلهم يؤمن ولو لم يكن –صلى الله عليه وسلم- على بينة من أمره وثقة عن خبر ربه –جل وعز- وما يوحيه إليه، لم يكن ليقول هذا وهو لا يأمن أن يتبعه أكثرهم ويؤمنون ويدخلون في دينه، ثم قال: (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى)، ولو لم يكن على يقين لم يقل: (وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)، وهو لا يأمن أن يتجاوزوا الأذى إلى أخذ المال أو إلى سبي الذرية وإلى قتل الأنفس، وأن يغلبوه إن قاتلوه ولا يولون الأدبار، فقاتلوه –صلى الله عليه وسلم- يوم قينقاع فنزلوا على حكمه، وقاتلوه يوم بني النضير فأجلاهم عن بلادهم، وقاتلوه يوم بني قريظة فولوا الأدبار فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، وقاتلوه يوم خيبر فهزمهم وملكم وأخذ عنوة خيبر بالسيف فرضوا به أن يقرهم على أن يكونوا حَرَثَةً يعملون له في النخل.[٩٣]

- إخباره –سبحانه- عن اليهود بعد هزيمة المسلمين بأحد وما عاودهم الأمل في هزيمة رسول الله وصحبه بعد ذلك فقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾، ثم أذكرهم بالآيات التي كانت يوم بدر فقال : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ

---

[٩١] - ٤٣٤.
[٩٢] - سورة آل عمران: ١١٢.
[٩٣] - ٤٣٥.

كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، [٩٤] فغلبوهم وقهروهم كما قال وإلى جهنم يحشرون كما أخبر، فصدق إخباره بالأول يشهد بالثاني. [٩٥]

وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [٩٦] فكان كما أخبر، حتى تم أمر المسلمين وكانت العقبى لهم، وكان المسلمون يرون ذلك ويتحدث المشركون بما يجدونه منه. [٩٧]

- إخباره في حال ضعف المسلمين وقوة الكافرين أن الغلبة للمسلمين، قال -سبحانه-: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾، [٩٨] فإن مسجد بيت المقدس قد كان غلب عليه الروم الدهور الطويلة واستولوا عليه مع ملكهم الشام وأقاموا فيه الشرك ومنعوا من ذكر التوحيد فيه، وغلبت قريش على المسجد الحرام وغيرهم من مشركي العرب، فبشر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه بالظهور على هذه المساجد، وملكهم لها ولمن فيها، وأنهم لا يدخلونها إلا أذلاء خائفين مقهورين، أو بأمان وعهد وإذن من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو من أصحابه، ثم أخبر بخزيهم في الدنيا وعقوبتهم من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فنزل بهم ذلك الخزي بقتل من قاتل منهم

---

[٩٤] - سورة آل عمران: ١٣.
[٩٥] - ٤٣٦.
[٩٦] - آل عمران: ١٥١.
[٩٧] - ٤٨٤.
[٩٨] - آل عمران: ١١٤.

وعليهم، والذل بأداء الجزية لمن رغب في الإقامة فيما غلب عليه الصحابة، فكان كما أخبر.[٩٩]

- تطويع السنن الكونية لصيانته –صلى الله عليه وسلم- وحمايته وصحابته، قال الله –تعالى-: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾،[١٠٠] فلو كانت هذه الريح وغيرها من الأمور التي جرت العادة مثلها لما امتن الله به واحتج والعدو والولي يسمعه، هذا لا يفعله عاقل فكيف بمن يدعي النبوة، ثم يؤكده بأن يجعله قولا لله وأن الله يذكرهم بهذه النعمة.[١٠١]
- إعلام الله إياه ما انطوت عليه قلوب أصحابه كما في قوله –تعالى-: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾،[١٠٢] والعاقل إذا تدبر علم أنهم لو لم يكونوا كذلك في ضمائرهم وطويتهم لما قاله فيهم ولما أخبر به عنهم، لأنهم كانوا ألفا وأربعمئة، فكان لا يأمن أن تكون طويتهم غير خالصة وإن أظهروا له ذلك، فكان لا يأمن أن يهجم منهم على خلافا ذلك، فيتبينون كذبه وهذا لا يفعله عاقل، فكيف بمثل محمد –صلى الله عليه وسلم- وهو يدعي النبوة والصدق ويدعوا الناس إلى أن يعتقدوا ذلك فيه. ولو كان فيهم من ليس بخالص الطوية لرجع إلى نفسه فكان يظهر ذلك ولو بعد حين، ولا يدع التحدث به وإن لم يصارح به رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وكان يتحدث مع اليهود والرؤساء الذين ذكرناهم من أعداء النبي –صلى الله عليه وسلم- ويخبرهم بما كان عليه وما قاله، وكانوا يسرون بعثرة لرسول الله –

---

[٩٩] - ٤٣٧.
[١٠٠] - سورة الأحزاب:٩.
[١٠١] - ٤٥١.
[١٠٢] - سورة الفتح: ١٨.

صلى الله عليه وسلم- وزلة إن كانت وحاشاه من ذلك، فكان يبلغ رسول الله –صلى الله عليه وسلم- والمسلمون يتحدثون به ويشيع الأمر، كما ظهر أمثاله من قول المنافقين مع إخفائهم لذلك، فتعلم حينئذ بدليل عقلك أن بواطنهم له –صلى الله عليه وسلم- كانت كظواهرهم كما أخبر وكما قال.[١٠٣]

تمت

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

محمد سلامة الأزهري

---

١٠٣ ـ ٤٦٥.